الفتوح الاسلامية
وأثرها فى تقدم المدنية
للدكتور حسن ابراهيم حسن

إذا حاولنا أن نذكر فى هذه الكلمة ما كان للحكومات الاسلامية من أثر فى تقدم المدنية ، لم يكن ذلك إلا تكراراً لأمر قد فرغ منه منصفو المؤرخين شرقيين وغربيين

اتسعت رقعة الاسلام حتى زادت فى السعة على الأمبراطورية الرومانية . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أول من وضع أساس السياسة الخارجية للعرب ، فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والايمان برسالته ، وغزا بلاد الروم وحارب الغساسنة على حدود الشام لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه . وقد جهز قبل وفاته حملة لغزو أطراف الشام . غير أن وفاته قد حالت دون إنفاذها . ولما ولى أبو بكر الخلافة شرع فى إتمام هذا الفتح ؛ وجاء بعده عمر فعمل على توسيع رقعة الدولة الاسلامية . وإذا ماتتبعنا ماقام به الرسول من الغزوات والسرايا ، وما قام به الخلفاء من بعده من الفتوح ، وجدنا أنه كان لهذه الغزوات والفتوح أثر كبير فى نهضة بلاد العرب من النواحى الاجتماعية والسياسية والأدبية وغيرها ، كما كان لها الفضل الأكبر فى نشر الاسلام فى أرجاء الجزيرة العربية ، ووضع الأسس والمبادىء العامة فى تنظيم المعاملات بين أفراد الجماعة الاسلامية . ذلك أن الاسلام قد حرص على أواصر القرابة من أن تعبث بها الغيرة ، كما سوى بين المرأة والرجل فى جميع الحقوق تقريباً ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية ، وحث على التمسك بالفضائل ، وعنى بأسرى الحروب أيما عناية ، وحاطهم بسياج من عدله ورحمته . ولم يذكر لنا التاريخ أن إماما من أئمة المسلمين أمر بقتل الأسرى ، اللهم إلا من كان يخشى خطره على المسلمين . ولا غرو فان الاسلام قد سوى بين الناس على اختلاف أجناسهم ؛ فسوى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والحاكم والمحكوم ، وبين الرجال والنساء . انظر الى المسلمين وهم فى مسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو فى مكة يحجون البيت الحرام ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام ، أتتجد فيهم من فاضل ومفضول ؟ وقد ساعد الرسول على توحيد كلمة العرب تلك الديمقراطية التى جاء بها الاسلام ، والتى تلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التى طالما مزقت شمل العرب ، وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى »

ولقد وضع الاسلام من الأصول والنواميس ما هو كفيل بالقضاء على الاسترقاق ، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك — على ما نعلم — من شدة التمسك بهذا النظام . وبدهى أنه لا يستطيع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يزيل أمرا ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء ، على أن هذا الاستيلاء لم يغفل تعبيد الطريق لألغاء الاسترقاق ، فما فتئ الرسول يرغب الناس فى العتق . وقد أبقى عليه الصلاة والسلام الرق لسببين :

أولهما : حفظ التوازن بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول كالفرس والروم ، حتى يستفيد العرب من أسرى الأمم كما استفادت هذه الأمم من أسرى العرب

وثانيهما : لحماية الضعفاء من نساء أكلت الحرب رجالهم . ولو تركن وشأنهن لكن عالة على المجتمع ومصدرا للشرور

على أن الاسلام ، وان لم يجد بداً من اباحة الرق ، فانه لم يترك الارقاء هملا ، فقد نظم شؤونهم ، وأخذ بأيديهم فى طريق الحرية . وقد وصف أحد الفرنجة معاملة الاسلام للرقيق بقوله : « لقد وضع للرقيق فى الاسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الانسانى النبيل ، ففيها تجد من محامد الاسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها الى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشى فى طليعة الحضارة . نعم ! ان الاسلام لم يلغ الرق الذى كان شائعاً فى العالم ، ولكنه عمل كثيرا على تحسين حال الرقيق ، وأبقى الأمر ، ولكنه أمر بالرفق بالأسير . ومما يدل على صحة هذا القول أنه لما جىء بالأسرى بعد غزوة بدر الكبرى فرقهم

الـ ـحابه وقال لهم استوصوا بهم خيرا »

ـندما بسط الاسلام ظلاله خارج الجزيرة وجدنا أهل هذه ـد المفتوحة يرحبون به بل ويحثون على اعتناقه لما فيه من الحرية والمساواة ؛ فكان العرب أثناء حكمهم بلاد فارس والشام ومصر وغيرها من البلاد يقومون بحماية أهلها مقابل مبلغ معين ، يدفع عن كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية ، وهى ضريبة شخصية يدفعها أهل الذمة مقابل اعفائهم من خدمة الجيش ؛ وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا الاسلام ؛ وكانت الأرض ملكا للفاتحين ، غير أن العرب كانوا يتركونها للأهالى يزرعونها على أن يؤدوا جزءا من غلتها ضريبة عقارية تسمى خراجا

ولما استولى العرب على بلاد فارس والشام ومصر اتخذوا لأنفسهم طرازا للعمارة خاصاً بهم ، يتناسب وطبيعتهم وحالة معيشتهم ؛ وقد فاق هذا الطراز طراز الفن البيزنطى والفارسى من حيث الرقى وجمال التنسيق والاتقان . والعرب — كما لا يخفى — مولعون بالتقليد ، كما أنهم معروفون بالابتكار المبنى على هذا التقليد ؛ وهم فى ذلك أشبه بالأمة الانجليزية . كذلك عنى العرب بتخطيط المدن وشق المجارى لتوصيل الماء الصالح للشرب اليها . فشرعوا على أثر انتصارهم فى موقعة القادسية (١٥ هـ) فى تخطيط مدينتى البصرة والكوفة ، كما أسسوا على أثر فتحهم مصر مدينة الفسطاط

وكان لاختلاط العرب بالأمم التى تغلبوا عليها أثر كبير فى تقدم المدنية . فقد بلغت النهضة العلمية أوجها فى صدر الدولة العباسية بفضل تشجيع المنصور والرشيد والمأمون . فكانوا يبعثون البعوث للتنقيب عن الكتب القديمة فى الكنائس والأديرة ، وأرسل المأمون بعثات علمية إلى الهند والقسطنطينية لنقل الكتب النفيسة ، ونشطت حركة الترجمة فى ذلك العصر نشاطاً عظيما . فنقلت الكتب الفارسية والهندية والأغريقية إلى العربية ، من بينها فلسفة أرسطو وهندسة أقليدس وجغرافية بطليموس ، وغير ذلك من الكتب فى الطب والفلك ، وكان من أشهر المترجمين حنين بن اسحق ، ويعقوب بن اسحق الكندى . وقد نهج الفاطميون والأيوبيون فى مصر ، وأمراء بلاد الأندلس فى الغرب نهج العباسيين . كذلك اهتم العرب اهتماماً كبيراً بدور الكتب العامة حتى بلغ عدد المجلدات فى مكتبة القاهرة فى عهد الفاطميين خمسمائة ألف مجلد ، وفى مكتبة قرطبة أكثر من أربعمائة ألف مجلد

ولم تقتصر علوم العرب على ما نقلوه عن غيرهم . فقد فاقوا أساتذتهم من الفرس والأغريق ، ولا غرو فقد شجع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وانتشار التجارة فيها على رقى علم الجغرافية . ولا عجب فالعرب بدو رحل بطبيعتهم . ومن أشهر الرحالة من العرب المسعودى وابن جبير وابن بطوطة الذين طافوا الأقطار ووصفوا الجهات المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدات ومهدوا بذلك سبيل الكشف الجغرافى . كذلك اهتم العرب بعلم التاريخ فوضعوا فيه المؤلفات القيمة ، كما نبغوا فى الشعر والأدب . ولا غرو فقد أثرت فيهم بلاغة القرآن ، وساعدت مظاهر الحضارة المادية وجمال المناظر الطبيعية ، وبخاصة فى بلاد الأندلس على رقى الخيال ورقة الشعر ، كما برع العرب فى فن الغناء والعزف على الآلات الموسيقية ، وممن نبغ منهم فى الموسيقى والغناء اسحق الموصلى ببغداد ، وتلميذه زرياب بقرطبة ، حيث أسس مدرسة للموسيقى تخرج فيها كثير من مشاهير الموسيقيين

كانت الدول الاسلامية فى المشرق ومصر وبلاد الأندلس مركز الفنون والصناعات ، ومنار العلوم والآداب ، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا غارقة فى بحار الجهل . وقد اتصل الأوربيون بالعرب واقتبسوا من علومهم واستفادوا من حضارتهم عن طريق مصر والشام أثناء الحروب الصليبية التى قامت فى القرن الحادى عشر الميلادى

فقد نزح الى بلاد الأندلس طلاب العلم من أنحاء أوربا ، فالتحقوا بمدارسها وجامعاتها ، وانتفعوا بدور الكتب الكثيرة بها . فلما عادوا الى بلادهم نشروا فيها علوم العرب . وبلغ من اهتمام الغربيين بالعلوم العربية أن أنشأوا فى باريس فى القرن الثانى عشر الميلادى مدرسة لتعليم اللغات الشرقية ، وقد ظهر من الأوربيين علماء تشبعوا بعلوم العرب وطرق أبحاثهم . نخص بالذكر منهم العالم الانجليزى رودجر بيكون (Roger Bacon) الذى دعا الناس الى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والاعتماد على التجارب للوصول الى الحقائق العلمية ، فبدأ الأوربيون يبحثون العلوم بحثاً علمياً كان له أثر عظيم فى قيام النهضة العلمية فى أوربا ورقى الحضارة الغربية . وقد نقل الأوربيون العلوم الطبية عن

ابن زهر وابن البيطار ، وعرفوا بصفة خاصة طرق معالجة الجدرى والحصبة . وطالما كان يستدعى ملوك أوربا وأمراؤها الأطباء من العرب لمعالجتهم . وأسس الفرنسيون مدرسة للطب فى مدينة مونبلييه (Montpellier) قام بالتدريس فيها أساتذة من بلاد الأندلس ؛ كذلك استفاد الأوربيون من نبوغ العرب فى الكيمياء . ولا تزال بعض المركبات الكيميائية ، كالكحول (Alcohol) والكافور (Camphor) والقلويات (Alkali) والأشربة (Syrops) تدل على أصلها العربى

وقد أخذ الأوربيون عن المسلمين كثيراً من أنواع النبات ، كالأرز ، وقصب السكر ، والخرشوف ، والشمش ، والبرتقال والزعفران ، وأنواع الورد والياسمين ؛ كما أخذوا عنهم الطواحين الهوائية لطحن الغلال ، ورفع الماء ، وأقاموا أول طاحونة منها فى مقاطعة نرمندية سنة ١١٠٥ م ، كما أقاموا غيرها فى هولنده . ولا تزال سهول بلنسية فى اسبانيا تروى إلى الآن بطرق الرى الفنية التى ابتكرها العرب . وقد نقل الأوربيون عن العرب كثيراً من الصناعات كصناعة السكر والحرير والورق كما عرفوا عنهم البوصلة التى كان لاستعمالها فضل كبير فى توسيع نطاق الملاحة وتشجيع الكشف الجغرافى . وقد نبغ العرب فى الفنون الحربية وصناعة السفن حتى أصبحوا أساتذة أوربا فى ذلك المضمار . فكانت أساطيل الدول الاسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط نماذج تحتذيها البلاد المسيحية فى صنع أساطيلها . ولا يزال كثير من الاصطلاحات العربية البحرية شائعاً على ألسنة البحارة فى جنوه حتى اليوم . من ذلك كلمة Cable المحرفة عن لفظ حبل ، وكلمة (Darsonal) الايطالية المحرفة عن لفظ دار الصناعة

ولم تقتصر استفادة الأوربيين من العرب على العلوم والصناعات ، فقد تأثر طلاب العلم من الأوربيين بالأدب فى اسبانيا ، وبخاصة الشعر والموسيقى ، فنقلوا إلى بلادهم أشعار العرب وأناشيدهم وأغانيهم مما كان له أثر كبير فى الآداب الأوربية . ولا عجب فقد كان العرب حلقة اتصال بين المدنية القديمة والمدنية الأوربية الحديثة

محمد ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية
وكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية

من مناظر الهجرة

أم سلمة*

بقلم ناجى الطنطاوى

— ١ —

(فى البادية ، قبل الفجر ، أم سلمة ممتطية بعيراً وابنها فى حضنها وأبو سلمة آخذ بخطام البعير يسوقه ، فى طريقهم إلى المدينة مهاجرين)

أم سلمة

« أبا سلم » حث المطى فانى أخاف من القوم المكيدة والغدرا
إذا أدركونا اليوم كان نصيبنا الرّ دى وغدت هذى الرمال لنا قبرا
وإنّى لا أخشى على نفسىَ الردى
ولا أرهب الموت الزؤام ولا الأسرا
ولكن طفلى سوف يصبح إن أمت
يتيماً ، ويمسى طعم عيشته مرا

(*) هى هند بنت سهيل القرشية المخزومية أم المؤمنين ، كانت زوج ابن عمها أبى سلمة بن عبد الأسد ، فلما مات عنها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة سنة أربع . وكانت ممن أسلم قديماً هى وزوجها وهاجرا إلى الحبشة فولدت له سلمة ، ثم قدما مكة ، وهاجرا إلى المدينة ، وفيها ولدت له عمر ودرة وزينب وقيل إنها أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة وأول ظعينة دخلت المدينة

وحين بعث إليها النبى صلى الله عليه وسلم يخطبها بعد سنتين من الهجرة حين مات زوجها وانقضت عدتها ، اعتذرت بكبر السن والأولاد وكونها غيوراً ، فذكر النبى صلى الله عليه وسلم أنه كبير أيضاً وذو أولاد ، ثم قال : وأما الغيرة فأدعو الله عز وجل أن يذهبها عنك ، فكان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يتحاكمن إليها لعلمهن ببراءتها من الغيرة . وكانت موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأى الصائب ، وهى صاحبة المشورة المباركة يوم الحديبية . توفيت على الأكثر فى آخر سنة ٦١ وهى آخر أمهات المؤمنين موتاً

أما زوجها أبو سلمة ، فهو عبد الله بن عبد الأسد المخزومى من السابقين الأولين إلى الاسلام ، أسلم بعد عشرة أنفس ، وكان أخا النبى صلى الله عليه وسلم من الرضاعة وابن عمته ، وروى ابن أبى عاصم من حديث ابن عباس : أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد ، وأول من يعطى كتابه بشماله أخوه سفيان بن عبد الأسد

شهد بدراً . وتوفى فى سنة أربع من الهجرة بعد منصرفه من أحد ، انتقض به جرح كان أصابه بأحد فمات منه